المسلمون في ألمانيا الاتحادية

(العمّال الأتراك)

الأخ نبيل شبيب

يقدّر عدد المسلمين في ألمانيا الاتحادية بحوالي (2,5) مليون نسمة أي أكثر من (٤%) من مجموع عدد السكان ، وهم :

١- جالية المسلمين الذين هاجروا من البلدان الشيوعية واستوطنوا بعد حصولهم على الجنسية الألمانية في جنـــوب البلاد بصورة خاصة .

٢- المتخرجون من الجامعات الألمانية ممّن استقر بهم العمل في ألمانيا الغربية ، يضاف إليهم عـــدد مـــن العمـــال والتجار الذين استقروا أو استوطنوا في هذا البلد .

٣- الطلبة المسلمون الذين يقضون فترة زمنية محدّدة في الجامعات الألمانية إمّا أن ينضموا بعدها إلى الفئة الـــسابقة أو أن يعودوا بعد تخرّجهم لخدمة بلادهم الأصلية .

٤- العمال المسلمون الذين (استوردتهم) ألمانيا الغربية لدعم تطورها الاقتصادي خلال فترة زمنية معينة -وهـــي فترة شبابهم وقدرتهم على العمل- يضاف إليهم أفراد أسر المتزوجين منهم إذا لحقوا بهم .

وقد بلغ تعداد العمال الأجانب عامة في ألمانيا الغربية أكثر من (2,5) مليون عامل ، يـــشكل الأتـــراك النـــسبة الكبرى منهم إذ يقارب عددهم (٦٠٠) ألف عامل ، فإذا أضفنا إليهم ذويهم وصل العدد إلى حوالي المليون مـــسلم تركي .

وفي ألمانيا الغربية حوالي نصف مليون عامل يوغوسلافي بينهم عدد كبير من المسلمين . كما يوجد عدد كبير من العمال الفلسطينيين نادراً ما تذكرهم الإحصاءات بشكل مباشر . أمّا التونسيون والمغاربة فقد بدأ المـــسؤولون عـــن الاقتصاد الألماني يجلبونهم خلال العامين الماضيين بصورة خاصة ، حتى بلغ تعدادهم قبيل اندلاع أزمة الطاقة الأخـــيرة حوالي ثلاثين ألف عامل و(عاملة) .

وقد أوقفت ألمانيا الغربية في مطلع عام أربعة وسبعين جلب المزيد من العمال الأجانب بعد ارتفاع نسبة البطالـــة عمّا كانت عليه في السنوات الماضية ، كما أوقفت تمديد أذون العمل الرسمية لهم عند انقضاء مدتها الحالية ، ممّا يتوقع معه أن تثبت الأرقام المذكورة لفترة معينة ثم تتناقص بعد ذلك ما لم تدخل تعديلات جديدة على السياسة الاقتصادية للبلاد ثانية .

وسيقتصر الحديث في هذا العدد من (الرائد) على أوضاع العمال الأتراك وذويهم في ألمانيا الغربية .

الأتراك في ألمانيا الاتحادية

نشأ مع الازدهار الاقتصادي في ألمانيا الغربية نقص كبير في الأيدي العاملة وجدت الحكومة الـــسبيل الأجـــدى لمواجهته في جلب العمال الأجانب وتشغيلهم ، وبدأت تنفذ ذلك بالفعل في أوائل الستينات . وازدادت هذه الظاهرة مع مرور الزمن لمواجهة عزوف العامل الألماني تدريجياً عن ممارسة مهن معينة مثل (تنظيف الشوارع والأبنية العامـــة) ومختلف الأعمال المتعبة والخطيرة في (المناجم تحت الأرض) أو أمام (أفران صهر الحديد)[1] .

وفي الوقت نفسه وجدت الحكومة التركية في إرسال العمال الأتراك إلى ألمانيا الغربية وسواها من الدول الأوروبية مخرجاً من الأوضاع الاقتصادية المتردية وسبيلاً لتخفيف مشكلة البطالة .

وجاءت الصورة العملية في إطار (لجان استكتاب العمال) التي فتحت أبوابها للتسجيل في تركيا . وهي لا تقبـــل العامل إلا وفق شروط معيّنة من حيث عمره –فلا تأخذ إلاّ الشباب– ومن حيث قوته الجسدية ليتحمل مشاق العمل ودرءاً لأخطار الإصابة بالأمراض ما أمكن ذلك .

وتدل الإحصاءات على أن حوالي (٤٠%) من هؤلاء العمال كانوا من الفلاحين البـــسطاء ، وأن (٧٠%) لا يحملون سوى الشهادة الابتدائية ، وأن (٢٠%) أميّون أو يقرأون ويكتبون لكنّهم لم يزوروا مدرسة من قبـــل ، وأن (٩٠%) ليس لديهم لغة أجنبية .

وتساعدنا هذه الأرقام بشيء من التأمل في أبعادها وآثارها العملية على فهم الظروف والمـــشاكل الـــتي تحـــيط بالأتراك المسلمين في ألمانيا الغربية والتي نحاول فيما يلي عرضها مستقلة عن بعضها البعض رغم أنها متشابكة إلى حدٍّ بعيد .

١– الظروف والمشاكل النفسانية

إنّ العامل التركي المسلم وقد جاء يطلب الرزق لأطفاله ، يتحمّل الكثير من الظلم الاجتماعي ويتجنـــب كـــل احتياج خوف فقدانه عمله . ومن جهة أخرى يواجه حوله مجتمعاً تسوده آفّة (الترفّع والتعالي) على العامل الأجـــنبي عامة و(غير الأوروبي) خاصة . كما يواجه الحملات الدعائية المقصودة نتيجة هذه الآفة ، فلا عجب أن تركّز بعـــض

الصحف على الادعاء بأن نسبة الجريمة بين الأجانب أعلى منها لدى الألمان ، مع أن الإحصاءات الرسمية تؤكد عكس ذلك .

لقد كان لهذا وسواه أثره في انعزال المسلم التركي عن المجتمع الألماني في المسكن وفي المــصنع وفي (المقهــى) وفي المطعم على السواء .

يضاف إلى هذا أن العامل التركي الذي أتى من مجتمع ريفي بسيط ، ووسط لا يزال للإسلام فيه آثاره وجذوره –رغم سياسة محاربة الدين– يواجه اليوم بمستواه الثقافي الضعيف مجتمعاً صناعياً معقداً في قوانينه وظروفه وتــشابك العلاقات بين أفراده على كل صعيد ، ويواجه وسطاً لا أثر فيه للأخلاق أو الروح الإسلاميّة أصلا .

٢– الظروف والمشاكل الاجتماعية

على رأس ما يواجهه المرء هنا مشكلة المسكن ، حيث تذكر الإحصاءات أن أكثر من (٥٠%) مــن العمــال الأتراك يعيشون اليوم في غرف تضم الواحدة منها (٤–٦) أسرّة ، وأن ثلثهم على الأقل لا يجد سريراً للنوم أصــلا . وتذكر أيضاً أن (٦٠%) منهم ليس لديهم مطابخ ، و(٧٨%) ليس لديهم دورة مياه فضلاً عن حمّام .

وجهلهم باللغة مع نقاء سريرتهم وسرعة ثقتهم بالغريب ، تعرضهم إلى عمليات الاحتيال التي تــستغلهم أبــشع استغلال ، ولا تنكشف إلاّ مصادفة وعلى صفحات بعض الصحف . وهكذا يقوم بعض المــلاّك بتــأجير (الــسرير الواحد) بمائة مارك ، أي الغرفة التي تتسع لأربعة أسرّة بـ (٤٠٠) مارك لأربعة عمّال ، بينمــا لا تتجــاوز أجرتهــا القانونية المائة مارك في الشهر الواحد .

ونشأت مع الزمن تجمعات سكنية للأتراك في المدن الكبيرة والمناطق الصناعية ، يتحاشــاها الألمــان ويــنخفض مستوى الرعاية الاجتماعية فيها إلى الحد الأدنى .. وفيها وتحت تأثير ظروفها تنشأ غالبية أطفال العمال المسلمين ، لا سيما وأن (٦٠%) من أطفال العمال الأجانب عامّة لا يزورون المدرسة أصلاً أو أنهم لا يستكملون فترة الدراســة الإلزامية على الأقل . ولا شك أن هذه النسبة ترتفع بين أطفال المسلمين ، ذلك أنهم لا يجدون في المناهج التعليميــة شيئاً يربطهم بمجتمعهم الأصلي ، ويحفظ لهم أخلاقهم الإسلاميّة ، وينقل لهم صورة عن تاريخ أمتــهم وبلادهــم ، ناهيك عن تعاليم دينهم الإسلاميّ .

٣– الظروف والمشاكل التنظيمية

آ) لقد تغلغلت بين العمال المسلمين الأتراك منظمة تحمل اسم (تركي دانيب) نشأت بالاتفاق بين (منظمة العمال الاجتماعية) في تركيا والحكومة الألمانية الاتحادية نفسها . ولهذه المنظمة الآن فروع في جميع أنحاء البلاد ، وليس للحكومة التركية أي سلطة عليها ، لكنها تخضع حالياً لنفوذ الشيوعيين .

ب) أنشأ الأتراك معتمدين على جهودهم الخاصة (مراكز إسلامية) في بعض المدن التي تجمع أعداداً كبيرة منهم ، باستئجار مساكن بما يوفرونه من مال ، يجتمعون فيها لصلوات الجمعة والأعياد ، وقراءة القرآن الكريم أو الكتب الدينية . وكثيراً ما تبعث الحكومة التركية (إماماً) من جانبها إلى المركز الذي ينشأ بهذه الصورة .

ج) لم يجمع المسلمين الأتراك في ألمانيا الغربية إلى الآن تنظيم إسلامي على نطاق واسع .. وما يبذل من جهود على هذا الصعيد لا يزال في طور البداية .

نظرة اقتصادية

لقد كان السبب الأصلي في مجيء العمال الأتراك إلى ألمانيا الغربية سبباً اقتصاديا ..

فهل عاد ذلك على العامل التركي المسلم بفوائد اقتصادية ما ؟

وهل حصلت تركيا على ميزات اقتصادية عن هذا الطريق ..

أم كانت الفوائد والميزات الاقتصادية من نصيب ألمانيا الغربية وحدها ؟

أما العامل التركي –ووضعه كما رأينا– فقد استطاع لقاء جهده وعرقه أن يجد ما يسدّ رمقه ورمق أفراد أسرته .

ولكن الفترة الزمنية التي يقضيها من (شبابه) في المنجم أو أمام نار الفرن الصناعي أو خلف سيارة جمع الأقذار في المدينة ، هذه الفترة التي لا تأتي على نهايتها إلاّ بعد أن يفقد قدرته على العمل والإنتاج كلية .. لا تسفر في معظم الأحوال –إن لم نقل جميعها– عن توفير مبلغ من المال يعينه في بلده عند عودته إليه عاجزاً عن العمل .

وأما الحكومة التركية فإن المساعدة الحقيقية لها إنّما تتمثل في إقامة مصانع تُستغل فيها الأيدي العاطلة عن العمل ويعود إنتاجها بالفائدة المباشرة على البلد ، وليس في اختيار (الأصحاء الأقوياء) من الشباب التركي بعد أن نشأوا على الموارد التركية ، وأخذهم إلى مصانع المجتمع المتقدم ومناجمه ليساهموا في زيادة تقدمه ، ثم إعادتهم بعد عجزهم ليعيشوا من جديد على حساب المجتمع التركي .

كما أن المساعدة الحقيقية التي تحتاج إليها تركيا هي الإعداد المهني لأبنائها وليس تشغيلهم في أعمال لا يتعلمون فيها جديداً ، لمجرّد ترفّع العامل الألماني عن ممارستها ، أو الرغبة في تجنيبه أخطارها .

وأما ألمانيا الغربية فإن الفوائد التي عادت عليها بتشغيل العمال الأجانب لا ينكرها اليوم أحد من الخبراء الاقتصاديين . وممّا يمكن تعداده على سبيل الإجمال والاختصار :

توفير ما يكلفه (العامل) للمجتمع حتى يبلغ سن الإنتاج وبعد أن يتجاوزها ..

تجنب المزيد من التكاليف في شراء آلات جديدة عن طريق استخدام الأيدي العاملة الرخيصة ، وبالتالي رفع الإنتاج مع انخفاض التكاليف ..

ضغط أصحاب العمل على الأجور لوجود احتياطي من الأيدي العاملة الرخيصة باستمرار لديهم ..

تغطية حاجة البلاد في أماكن العمل الخطيرة والتي يترفع العامل الألماني عن ممارستها .

وأخيراً وليس آخراً ربط الكثير من المصالح التركية الاقتصادية وغير الاقتصادية بمصالح ألمانيا الغربية بدعوى إمكانية الاستغناء عن العمال الأتراك وردّهم في أي وقت .

هذه صورة موجزة عن أوضاع العمال الأتراك في ألمانيا الغربية ، سنعقبها -إن شاء الله- بصور أخرى عن سواهم من المسلمين في هذا البلد وفي سواه من البلدان الأوروبية ، لتكون هذه المعرفة سبيلاً إلى معالجة مشاكل المسلمين معالجة صحيحة وإلى خدمة الإسلام على كل صعيد .

من المراجع :

١- كتب :

1- (Politische Ökonomie der Gastarbeiterfrage) - Ro Ro Ro: 1/73

2- (Schwarzbuch: Ausländ. Arbeiter) - Fischer

3- (Sogenannte Gastarbeiter) Jugenddienst Verlag 72

4- (Welt-Almanach) - Fischer 74

٢- مجلة (الشبيجل) الألمانية الغربية ، الأعداد ٢٧ و٣٦ و٥١ عام ١٩٧٣م

٣- محاضرة (الأتراك في أوروبا عامة وألمانيا الغربية خاصة) ألقيت في المؤتمر السنوي لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا عام ٩٢هـ/٧٢م ، وفي الندوة الشهرية للمركز الإسلاميّ في آخن (مسجد بلال) .

---

(١) ومن المؤكد اليوم أن تسعين في المائة على الأقل من أماكن العمل في هذه المجالات يشغلها العمال الأجانب ولا سيما الأتراك . ولا يمكن الاستغناء عن هؤلاء رغم البطالة لأنه لا يوجد من يحلّ مكانهم من العمال الألمان .